تحارب الانسان والنبات

لمؤلفه مصطفى الشرابي

يتجبر الانسان على الارض ويستكبر ، ويتيه على المخلوقات السائرة بادراكه وعقله ، ويسخر النبات والحيوان لأغراضه ، ويعمد الى النباتات في تربتها فيستأصلها من جذورها ويدفنها حية او يطعمها ماشيته او يحرقها تحريقاً ويذرو رمادها في الريح والهبوب ، ثم يدك تلك التربة او يبسطها ويشيد عليها شاهقات القصور بمقاصيرها الهادئة وأفنيتها الواسعة وبلاطها المجزّع وفسيفسائها الآخذة بمجامع القلوب . ومتى انتهى من عمله هذا شمخ بأنفه وتعسلف في قوته وأيّده ونظر الى الطبيعة المغلوبة على امرها نظرة القائد المعتز بالنصر وراح يتباهى بأعماله الباهرة وبعدنيته الزاهرة وهي تجتاح كل عقبة تقف في سبيلها سواء اكانت تلك العقبة راسخة متمكنة ام رجراجة مضطربة

ويظن الانسان في غروره انه قد غلب النبات على امره وأنهُ قد ازاحه من منابته واستولى على بلاده وجعلها مستعمرة يتصرف بها تصرف المالك في ملكه . لكن هذا النبات الذي يبدو ضعيفاً لأعين البسطاء من الناس لا يبيت على ضيم ولا يغمض له جفن على قذى ، فهو يظل يلبث ويتكاثر حوالي القصر القائم على تربته حتى اذا لاحت له غرة من صاحب ذلك القصر قذف ببذوره داخله فانتشت ونمت فيه . اما اذا غدر الزمان الخؤون بأهل القصر وسكانه فطاح بمحفارتهم الحائلة ومدنيتهم الزائلة فهنالك تشاهد النبات قد ثارت ثوائره وتباشرت بالخير أزاهره فما بين البلاط وفي شقوق الجدران وعلى السطوح وفي كل مكان ضيق او واسع يستطيع فيه الحياة بعناء او برخاء وتراه يلشب جذوره في ضيق من مم الخياط فيقلق البلاط ويفرج ما بينه ويصدع حجارة الجدران ويزيحها عن مواضعها حتى يدك بنيانها دكًّا . ولا ينفكُّ يعمل في هذا السبيل اناء الليل وأطراف النهار الى ان تتفتت حجارة القصر وتستحيل تراباً فيكون النبات قد عاد الى وطنه المحبوب وطهره من بقايا الانسان الغاشم الظلوم وعاش بأمان وسلام لسان حاله يقول « ان عادت العقرب عدنا لها ... »

وربما ظنَّ القارىء ولا سيما اذا كان مصريًّا انني ابالغ فيما اقول ، لان المصري يعيش في بلاد ترتوي بماء النيل لا بماء المطر فلا تتكاثر الأعشاب في صحاريها ولا تلتفُّ ولا تستأسد ولا يزحم

بعضها بعضاً . لكن الامر على خلاف ذلك في الارض القريبة من خط الاستواء حيث وفرة الامطار وارتفاع الحرارة تمدان النباتات بغذاء وماء وقوة فيسمو قدّها ويكبر جرمها ويعظم خطرها حتى اذا تركت وشأنها نشأت منها حراج غيهاء الثمجر وادغال يتسابق فيها العشب والحشة وجميعها متشبثة بالارض تتزاحم على الشبر منها وتتقاتل في امتلاك كل ذرة من ذراتها . وليست البلاد الشمالية اي اوربا وما على سمتها من البلاد بأقل نباتاً مختلف النباتات البرية ، بسبب غزارة امطارها وان كانت حرارة الجو فيها ادنى منها في البلاد القريبة من خط الاستواء

ولهذا اذا نظر المصري الى اهرام الجيزة مثلاً وجدها موطدة الاسس ثابتة الاركان سليمة السطوح لم يعبث بها عابث من مملكة النباتات لأن هذه لا حياة لها في ارض جفّ ترابها وتلاعبت في اجوائها اشعة الشمس المحرقة ، ويجد ابا الهول جاثياً أمام مدينة المعز يهزأ بتعاقب الايام وتتالي السنين والقرون وهو اجرد امرد تطوف العين في هيكله الضخم فلا تقع على نبتة واحدة تسبّح خالقها في الغدوّ والآصال . لكننا اذا ركبنا البحر الى سيام مثلاً وطوّفنا في بعض مصانعها ومعابدها القديمة التي اها غرق في غابات من الاشجار الملتفة . فهذا صنم عظيم للآلهة بوذا قد طوقت عنقه النباتات المعترشة حتى همت بخنقه ، والبسته في رأسه قلنسوة من اوراقها المتشابكة ونسجت على منكبيه ازارها السندسية ، وحلّت زنديه باساورها الزمردية ، ولم تترورّع في عجوهها وانحنائها عليه فغطت اذنيه لكي يصم وفرّخت في عينيه لكي يكف ويعمى وانبتت بزورها في فيه حتى تخمد منه الانفاس ، ثم صاحت بالناس تعالوا فانظروا ماذا صنعت بربكم الاعلى واعبدوه ان كنتم لتلهه عابدين ولكن لا تنسوا انني سأحيله بعد حين الى تراب وطين

وما لنا والبلاد البعيدة نتمثل بها ما دام في بلادنا امثال كثيرة لما ذكرت . فلقد مررت في السنة الماضية بخرائب افامية الشهيرة شمالي الشام فوجدت بعض النباتات قد مدّت جذورها في شقوق العُمُد والتماثيل وكأنها تهزأ بها وبباحثيها . ومررت بقرية حقيرة من قرى حلب بعض ارضها مكسو بفسيفساء رومانية قديمة فاسترعت نظري ازهار علت جسم غادة حسناء من فوائق الفسيفساء . وحدث ان مرّت في تلك القفرة قافلة من الابل وكان في رفقتي عالم فرنسي فقال لي ان بلادكم مفتاح الجزيرة وهي مهما تعاقبت فيها المدنيات وعهما عشقها الفاتحون فانهُ لا يدوم فيها غير هذه الازهار وغير اصحاب هذه الابل

والخلاصة ان صاحب الارض الحقيقي هي نباتاتها فهي التي استولت على سطح الكرة الارضية في طولها والعرض . وما مدنية الانسان بقصورها ومدنها ومصانعها ومعابدها وهياكلها سوى بقع صغيرة تلطخت بها بشرة هذه الارض . وهي كلها صائرة الى الزوال لان النباتات اذا غذتنا بحبوبها وأثمارها وكستنا بنسيج أليافها وكانت اكبر دعامة في بناء حضارتنا المتتالية فهي لا تجيز لنا ان نتجاوز على حرمها الاقدس فنلوّثه بهذه المدنيات الزائفة